بريد الجمعة

ثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجمعة ■ ٣١ مايو ٢٠٠٢ ■

يكتبه : عبدالوهاب مطاوع

السفينة الغارقة!

فكرت كثيرا فى أن الجأ إليك لكن خوفى من انتظار الرد طويلا أو من عدم الرد نهائيا كان يجعلنى أحجم عن الكتابة.. فأنا سيدة شابة أبلغ من العمر ٢٩ عاما من أسرة متوسطة الحال، ووالدى رجل فاضل كافح لتربيتنا أنا وأخوتى الأربعة ووالدتى كذلك ربة بيت طيبة، منذ ٩ سنوات تزوجت وأنا فى العشرين من عمرى رجلا لا يعرف للرجولة أى معنى، فكان يعتمد على مرتبى ولا ينفق مليما واحداً على وسلبيا لايتحمل أى نوع من المسئولية ويعتمد على والدى فى كل شىء، حستى أننى كنت أشعر أننى متزوجة من أبى وليس من هذا الرجل.. فلم أتحمل هذا الوضع وطلبت الطلاق منه، ورجعت إلى بيت أبى وأنا مطلقة فى الحادية والعشرين من عمرى وبين يدى طفل رضيع أنجبته منه.

وليس خافيا عليك ان الابنة حين تتزوج ثم ترجع إلى بيت أبيها مطلقة فإنها لا تتحمل وضعها الجديد، لأن الأب والأم يتحولان بعد طلاق ابنتهما الشابة إلى سجانين لا يرحمان اسيرهما ومع أنى تفهمت اسباب ذلك وقدرت دوافعهما إليه ، حيث إنهما يخشيان على سمعة ابنتهما الشابة المطلقة.. إلا اننى عانيت كثيرا من قيود السجن والخوف، وبعد فترة تقدم لى شخص سبق له الزواج وطلق زوجته لعدم الانجاب فرحبت به وقدرت انه سيكون الزوج الذى يعوضنى عن سوء حظى فى الزواج الأول، كما قدرت ايضاً انه ستكون لديه دوافع إنسانية لتربية طفلى واحتماله حيث لم ينجب أطفالا، فإذا بالواقع يتكشف عن شىء مخالف لذلك ومنذ أول أيام الزواج قال لى زوجى : إنه من الأفضل أن يقيم ابنى مع والدى ضمانا لراحته.. وبرغم قسوة ذلك فلقد تحاملت على نفسى وتركت ابنى يقيم مع والدى.. فلم تمض فترة طويلة حتى تشككت فى أن العلاقة بين زوجى وبين مطلقته السابقة قد رجعت، وأن هناك خيطا سريا يربط بينهما، خاصة انها لم تنجب من زوجها الجديد أيضاً.. ثم تحول الشك إلى يقين ولمست أشياء أحرقت دمى من كلام عنها من جانب زوجى طوال الوقت إلى اتصالات تليفونية معها ومقابلات، فلم احتمل الوضع مرة أخرى وطلبت الطلاق وخرجت من الأمر كله خالية [illegible] جديد إلى بيت أبى بعد زواج ثان لم يدم اكثر من ستة أشهر، وتجرعت مرارة الفشل لفترة أخرى ثم تقدم لى شخص يكبرنى بعشرين عاما وسبق له هو أيضا الزواج والطلاق ولا عجب فى ذلك لأن المطلقة مثلى لا تحصل سوى على بقايا الرجال، وقد قبلت بالزواج منه بالرغم من أنه لا يملك شقة ولا اثاثا.. ورضيت بالأمر الواقع قائلة لنفسى إنه فى النهاية رجل وسوف يعوضنى عما لاقيت ويرحمنى من نظرات الآخرين إلىّ، ومن سجن بيت والدى وتحكّم أخوتى فىّ، وتزوجنا فى شقة إيجار بالقانون الجديد.. واشترينا اثاثا بالتقسيط، وقدرت ظروفه واحتملتها وحاولت أن اقترب منه لأنه الخيط الأخير بالنسبة لى، وأعطيته الكثير من الحب والعطف والحنان لأحتفظ به، ولكى أوثق روابطى معه فكرت فى أن انجب منه طفلا آخر يكون اخا لابنى ويربطنى بالرجل الثالث فى حياتى فذوجئت به يطلب منى أن أجرى جراحة لاستئصال الرحم لكيلا أنجب منه، ورفضت ذلك بالطبع فبدأت معاملته لى تسوء، وبدا يتعامل معى بطريقة غريبة فيرضى عنى فى بعض الأحيان ويرجونى باكيا أن أبقى إلى جواره والا اتخلى عنه.. ويبتعد عنى فى أحيان أخرى الأسابيع ويعاملنى معاملة تتسم بالإهانة.. وما حدث مع زوجى الثانى حدث معه هو الآخر فلقد استعاد علاقته بمطلقته وعمل معها. فكانت النهاية التى لابد أنك قد توقعتها ورجعت إلى بيت أبى مطلقة للمرة الثالثة.

إننى لا أعرف أين الخطأ فى كل ذلك هل هو فى شخصى أنا أم فى الرجال الثلاثة الذين تزوجتهم؟ أم فى الظروف السيئة التى جعلتنى أبدأ سلسلة من القصص الفاشلة؟

.. وهل بقى فى الحياة رجل جيد أم ترى هل انتهى زمن الرجال؟

وكيف اتجنب نظرات الناس التى تقتلنى وشكوكهم المستمرة فى ،حيث لابد انهم يعتقدون أن هناك خطأ فى بدليل طلاقى ثلاث مرات وأنا فى التاسعة والعشرين من عمرى.

لقد يئست من الأمل فى النجاة ومن أن أجد فى هذه الدنيا الاستقرار والأمان، ولولا ابنى الذى ظلمته منذ ولد لتخلصت من حياتى.. فماذا تقول لى وما سر هذا الحظ السيىء الذى يلازمنى فى الزواج والرجال دائما؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

سر الفشل فى هذه القصص الثلاث فى عبارة موجزة هو قلة الصبر والاحتمال وهشاشتك النفسية وسرعة تسليمك بالفشل وتفضيلك الهروب من ميدان المعركة على خوض غمارها ، وتحمل لهبها وعنائها إلى أن يتحقق الهدف.. أو تنالى على الأقل شرف المحاولة وإبراء الذمة من عار القفز من السفينة وتركها لمصيرها المحتوم عند أول عاصفة.

هذا هو «الخطأ» الذى تتساءلين عنه ياسيدتى.. وتسألين هل يكمن فيك أم فى الرجال أم فى الحظ العاثر الذى يلازمك؟

فالحقيقة التى لابد من الإقرار بها دون خداع للنفس أو تبرير للأخطاء هو ان كل هذه الزيجات الثلاث خاصة الاولى منها كان من الممكن انقاذها كلها من الفشل والانهيار حتى ولو كنت قد أسأت الاختيار فى بعضها أو صادفك الحظ العاثر فى بعضها الآخر، وذلك لو كنت قد تحليت بالحكمة الكافية والصبر على المكاره.. وصدق النية فى الكفاح وتحمل العناء طلبا للسعادة والاستقرار. فلقد انكرت على زوجك الأول سلبيته واعتماده على مرتبك وأبيك وعدم تحمله للمسئولية وكل ذلك مما يعيب الرجل بالفعل وينتقص من اعتباره لكن الزوجة الرشيدة خاصة إذا كانت قد انجبت منه طفلا وليدا لا تدمر حياتها الزوجية وتقضى على طفلها الرضيع بالحيرة الأبدية بينها وبين ابيه لمثل هذه الأسباب وحدها وبعد عام فقط من الزواج.. وإنما تبذل كل ما فى وسعها لتقويم زوجها وإصلاح حاله وعلاج مثالبة او على الأقل تحجيم اضرارها على الأسرة، وتصبر عليه حتى يكتسب تدريجيا الجدية والقدرة النفسية على تحمل المسئولية والوفاء بالواجبات العائلية وقد تنهض هى إذا باءت كل محاولاتها بالفشل لتعويض نقصه، وسد ذرائعه وتتجاوز عن سلبياته وترضى عن ايجابياته الأخرى وتقبل بحياتها على هذا النحو.. وتشرب على القذى كما يقول الشاعر إذا لم تصف مواردها تجنبا لمرارة الفشل وانهيار الأسرة وتمزيق الأطفال بين ابويهم، ولقد تعزّى نفسها عما تتجاوز عنه بالتسليم بمقولة الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه حين قال «ومن ذا الذى لا يكون فيه شىء؟» أى من ذا الذى يكون مبرا من كل عيب بشرى.

ولا تكف بالرغم من ذلك عن الامل فى الإصلاح، فإن تفاقمت العيوب حتى تعدت كل قدرة على الاحتمال.. فلقد تسلم بالفشل فى نهاية المطاف ولكن بعد ان تكون استنفدت على مدى السنوات الطوال كل الحيل معه.

فهل فعلت شيئاً من ذلك يا سيدتى؟

لقد ضقت ذرعا بوضع قد تصير عليه زوجات كثيرات إعلاء لمصلحة أطفالهن بعد عام واحد من الزواج وسارعت بطلب الطلاق.

وبدلا من أن تكسبك مرارة الفشل فى بداية حياتك الزوجية قدرة اكبر على الصبر والكفاح لحماية الأسرة من الانهيار المبكر، سارعت على عكس المتوقع بالتسليم بالفشل وطلبت الطلاق من زوجك الثانى بعد ستة أشهر فقط من الزواج وأسرعت بالفرار من ميدان المعركة بغير أن تبذلى قطرة عرق واحدة فى محاولة اجتذاب زوجك الثانى إليك واستعادته من مطلقته والصبر على الوضع الخاطىء إلى حين إصلاحه.. فإن عجبت لشىء فى هذه القصة فلسلبية أبويك واخوتك معك فى هذا الشأن وتقاعسهم عن نصحك بالصبر والتريث والصمود أمام اختبارات الحياة... ومع انك لم تشيرى فى رسالتك إلى أنك انت التى طلبت من زوجك الثالث الطلاق لنفس المبرر الذى قد يكون موهوما ولا إلى الفترة التى استغرقها ارتباطك به، فإنى أتصور ارتباطا مع همتك الخائرة وقلة جلدك وصلابتك انك انت ايضاً التى طلبت الطلاق فى المرة الثالثة وبعد فترة قد لا تتجاوز عاما من الزواج، إن لم تقل عنه. وليس هكذا يفعل من يبحث حقا عن الأمان والاستقرار فى حياته، فالحياة الزوجية ليست دائما نزهة شاعرية فى ضوء القمر ووسط شدو البلابل وأريج الورود وإنما هى رحلة فى بحر يصفو فى بعض الأحيان فنستمتع بالنسيم المشبع برذاذ الماء وزرقة السماء ويضطرب فى أحيان اخرى فنتجلد.. ونتشبث بشراع السفينة لنحميها من الغرق ولولا الصبر والاحتمال فى الأوقات العصيبة والتذرع بالحكمة، وبعد النظر وإعلاء مصلحة ركاب السفينة من الصغار فوق كل الاعتبارات.. لما نجت سفينة من الغرق مع كل عاصفة تهب عليها.

والرؤية الصائبة تقودنا دائما يا سيدتى إلى الفعل الصائب كما يقول لنا أبو الفلاسفة سقراط.

والمؤمن لا تراه إلا لائما نفسه كما يقول لنا القطب الزاهد الحسن البصرى، لهذا فلابد من أن تراجعى مواقفك وافكارك طويلا.. وأن تكفى عن التماس الأعذار لنفسك على طول الخط.. والاكتفاء بلوم الحظ العاثر او اتهام الدنيا بخلوها من الرجال، وأن تعترفى بأن أهم الأسباب التى حرمتك من حلك العادل فى الاستقرار هو قلة صبرك وضعف همتك على الكفاح وتحمل العناء حفاظا على السعادة.. ولسوف يعينك الإقرار بهذه الحقيقة على أن تتعلمى من دروس الفشل وتعاهدى نفسك على التشبث بفرص السعادة حين تتاح لك من جديد وعلى الصمود فى ميدان الحياة..والدفاع عن الأمان والاستقرار حتى الرمق الأخير بإذن الله.